تعقيب على مقال الأستاذ حمد الجاسر
(السموءل واليهود في الجزيرة العربية)*

إطّلعت على ماكتبه علاّمة الجزيرة الأستاذ حمد الجاسر بصفحة (آداب) من الرياض الأسبوعي عدد ٥٤٣٨ في ٢٣ رجب ١٤٠٣هـ بعنوان (السموءل واليهود في الجزيرة العربية) تعقيباً على مقال صدقي البيك الذي نشرته الرياض الأسبوع بعددها ٥٤٢٧ بعنوان (السموءل، أين هو من الحقيقة؟) ودار النقاش بين الأخوين عن أصل السموءل ومنبعه، وهل هو عربي أم اسرائيلي؟ عدناني أم قحطاني؟ يهودي أم وثني؟ وعن البلدة التي سكنها، هل هي تيماء أم خيبر أم قينقاع وعن قصر الأبلق وتاريخه ومكانه ...إلى آخره، وقد ذهب الأستاذ حمد إلى أن اسم السموءل عبراني وهو اشمويل فعربته العرب مستند لا بقول ابن دريد، أما دينه فيهودي، وأما قصره فالأبلق الفرد قصر تيماء الذي جاء في شعره ...إلخ إلخ.

وشخصية السموءل وقصته قد رواها المؤرخون ضمن ماروووا عن التاريخ الجاهلي، ومصدرهم في كل ماروووا عن ذلك التاريخ الغامض الاقاصيص والحكايات التي كانت متداولة على أفواه بعض القبائل، وقد دونت تلك الأقاصيص والحكايات في القرن الثاني أو الثالث الهجري بعد أن دون الشعر والنثر وسائر العلوم، أي بعد إنقضاء العصر الجاهلي بأربعمائة سنة، هذا إذا افترضنا أن السموءل قد عاش في آخر ذلك العصر، أما إذا كان قد عاش في وسطه أو في أوله فتضاف مئات أخرى من السنين، وعليه فإن قصة السموءل قد ظلت ألسن العوام بما فيهم من وثنيين ويهود وجاهليين تلوكها وتزيد فيها وتنقص طيلة هذه القرون.

(*) نشر بالرياض الاسبوعي عدد ٥٤٨٠ في ٧ رمضان ١٤٠٣هـ

فهل يجدر بنا بعد ذلك، وكأمة مسلمة لا تقبل أحاديث نبيها الذي رآه أسلافها بعيونهم وسمعوا أحاديثه بآذانهم، إلا بعد إمراره من عدة غرابيل، تصفي سليمه من سقيمه، وأصيله من موضوعه، وصحيحه من مصنوعه، هل يجدر بنا أن نصدق كلاماً لانعرف مصدره ولاقائله ولا راويه ولا تاريخه ولازمانه؟.

بعضُ القصَّاصين القدامي كابن منبه وعبيد بن شربه وابن الكلبي وأمثالهم رووا لنا عن أخبار العصر الجاهلي أشياء كثيرة يكذبها العقل والوجدان، وتدحضها نصوص القرآن، فقد قالوا ــ مثلاً ــ إن سبأ كان رجلاً، وأنه كان محارباً، كثير الغزو، واسع السبى ولكثرة سبيه سمي بسبأ ثم جاؤا بسببٍ آخر سموه سبأ الأصغر رووا له نسباً سلسلوه إلى آدم، ثم وضعوا له أدباً وشعراً ووصايا وحكماً ضمنها الهمداني ونشوان الحميري في مؤلفاتهما، في حين أن تاريخ الشعر العربي من حيث هو لايتجاوز القرن الثاني قبل الإسلام، فأين آدم؟ وأين سبأ الأصغر؟وأين الشعر العربي؟ مع أن القرآن الكريم ــ لو تأملوه ــ ينص على أن سبأ ليس رجلاً وإنما هو شعب، قال الله تعالى في سورة سبأ : «لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية...الآية» وجاءت النقوش مفصحة بذلك وناصة على أن سبأ أمة وأن حمير أمة وأن أسماء كثيرة كان يعتقدها المؤرخون رجالاً ماهي إلا أمم وشعوب وجبال وأمكنة.

وقد اخترت نقشين سبئيين أحدهما يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، والثاني إلى القرن الرابع للميلاد كشاهد على ذلك (انظر الصورة رقم ١ و٢).

وقالوا في ملكة سبأ التي لم يرد أي نص باسمها لافي القرآن ولا في النقوش أن اسمها بلقيس أو بلمقه أخذوه خطأ من اسم إله السبئيين (المقه) أي إلـه مكه الذي هو جل جلاله والذي انتشرت عبادته في الجزيرة العربية في القرن العاشر قبل الميلاد عندما اعتنقت ملكة سبأ وقومها الإسلام على

يد النبي سليمان كما ينص على ذلك القرآن، وقد ظل المقه معبود سبأ الأوحد كما تنص على ذلك مئات النقوش، وجاء في نقوش عديدة أخرى بلفظ (إل ذ سموى) أي إله السماء، وجاء في آخر بلفظ (إل ذي سموي وارضين) أي إلٰه السماء والأرض، وفي هذا مافيه من توافق القرآن الكريم والنقوش، تلك النقوش التي تعتبر من أقدم النقوش العالميه التي يرد فيها ذكر الله ومكة وشعب سبأ.

لنعد إلى أقوال القصّاصين ومن تابعهم خطأ من المفسرين، فقد قالوا عن ملكة سبأ التي سموها بلقيس إنها كانت على غاية من الجمال إلا أن ساقيها كانا ساقي حمار، ولهذا فإنها عندما رأت صرح سليمان الممرّد من قوارير كشفت عن ساقيها متوهمة أنه ماء، فزادوا من خيالاتهم أنها استحيت وخجلت من سليمان، أي أنها ما كانت تحب أن يرى ساقيها الحماريين، هزؤٌ اسرائيلي ودسٌّ يهودي أخذه رواة التاريخ والأخبار بكل براءة وصدقوه بكل سذاجة.

وقالوا عن هدهد سليمان، الذي ذكره القرآن والذي عاش قبل ألفي عام من عصر أولئك الوضاعين، أشياء كثيرة عن كبر حجمه وجمال ريشه وطول منقاره، ونسوا أن القرآن الكريم ماجاء لوصف المحسوسات وسرد الحكايات وإنما جاء للعبرة والعظة عند مناسبة ذكرهما.

وتشبه أقوالهم عن سبأ الأكبر والأصغر أقوالهم في السموءل فقد جعلوه رجلاً، ثم اخترعوا لنسبه مشجراً يوصله بيهودا، ثم جاء من نسبه إلى العرب الأزد من قحطان كما ذكر ذلك علامة الجزيرة في مقاله، وبعد كل هذا ملّكوه حصن الأبلق من تيماء ذلك الحصن الذي ماكان يملكه إلا من تخضع له القبائل العربية الشمالية الشهيرة بمنعتها وقوتها، وكانت تيماء أهم وأخطر المراكز العسكرية والإدارية والثقافية في شمال الجزيرة العربية، وقد قصدته الزباء التي هزمت الرومان في عدة مواقع تاريخية كما قصدت مادر بالجوف فهزمت دونها ثم قالت قولتها المشهورة (تمرد مارد وعز الابلق)، فهل

من المعقول أن تتنازل قبائل العرب المنيعة عن برجها الحصين وحصنها الفرد الذي حرس الجزيرة العربية لعدة قرون من هجمات الآشوريين والبابليين ثم تتخلى عنه لهذا اليهودي الوافد؟؟

إن كلمة (سموءل) أصلها سموى إل أي إله السماء أو الله جل جلاله جاءت في عدة نقوش عربية شمالية، كما جاءت في عدة نقوش عربية جنوبية بلفظ (إل ذسموى) كما ذكرنا.

وكانت تيماء واحدة من مراكز عبادة إله السماء كما كانت مأرب في جنوب الجزيرة وقد اشتهر أهلها بعبادة إله السماء فسموا شعب سموى إل، وجاء في نقش الآشور بانيبال ملك آشور (٦٦٨ ــ ٦٣٣ قبل الميلاد) إسم (أوتاحازل = حازإل) ملك سموى إل (ذبتيماء)[١] أي الذي بتيماء جاء ذكره مرتين في نفس النقش، كما جاء ذكر تيماء وقبيلتها سموى إل في نقش تيقلات بلاسر ملك آشور (٧٤٧ ــ ٧٢٧ ق.م) كواحدة من القبائل التي تحارب معها[٢] .

وجاء في نقش آخر لآشور بانيبال ذكر (أوتا ملك أدوماتوو سموى إل) أدوماتو هي الجوف وسموى إل هي تيماء، وهذا يعني أن أوتا كان ملكاً على شعبي شمال الجزيرة العربية، وهذا أيضاً يبرر تسميته بملك العرب حسبما جاء في نقش آشوري آخر.

ومن استقراء النقوش التي نسخها وصورها جوسن وسافيناك وفلبى وونيت من قصر تيماء الذي يعرف حالياً عند السكان ب (زللوم) ومن سور حداج وفاو الطليحة ووادي خويلد وخرائب تيماء الغربية ومن نقش هوبر الذي أودعه بمتحف اللوفر في باريس والمشهور بحجر تيماء، ومن النقش

(١) Ancient Near Eastem Texts P.P.300

(٢) نفس المصدر Luckenbill A.R.11 No 869

الأرامي الذي عثرت عليه إدارة الآثار خلال تنقيبها الأخير في تيماء، يتبين أن تيماء كانت أكبر وأهم مدينة في شمال الجزيرة العربية وبوابة عسكرية من بواباتها التي تعرضت لغارات عديدة عبر التاريخ من آشورية وبابلية وفارسية ورومانية.

أما أسماء قبائلها : فسموى إل ودادان، وماسا، ونبايات، وعدنان، وأدوماتو.

وعبد الله فلبى عندما زار تيماء في الخمسينيات الميلادية سماها بأرض الأنبياء تقيلداً لموسل، كما سمى جبلها (غنيم) بالقمة العذراء، وكتابه عنها (أرض الأنبياء) معروف ومترجم.

وممن كتب عنها من الأوربيين باهتمام : دوتى، موسل، جوسن، وسافيناك، هوبر، ومن المؤرخين العرب مصطفى الدباغ في كتابه (الجزيرة العربية)، والأستاذ عبد القدوس الأنصاري في كتابه (بين التاريخ والآثار) والأستاذ حمد الجاسر في كتابه (رحلة في شمال غرب الجزيرة العربية).

وكل ماعثر من نقوش فيها أو في غيرها لايفيد أن يهودياً قد استولى على حصنها، كمالم تشر أية معلومات أن اليهود كان لهم شوكة أو ثقافة أو حتى ذكر لا في شمال الجزيرة العربية ولا في جنوبها.

أما تاريخ نزوح اليهود إلى الجزيرة العربية، فلا أعتقد أنه تجاوز القرن الثالث للميلاد عندما قضى الرومان على دولة المكابيين ففرّ بعض اليهود بجلودهم ووجدوا تحت ظل القبائل العربية في تيماء ويثرب وخيبر، وفي صعدة وعمران من اليمن المكان البعيد الآمن.

ورأيي أن الأقاصيص والأحداث والأعلام المتعلقة بتاريخ ما قبل الإسلام، والتي لم نجد في ذكرها نصاً من قرآن أو سنة، ينبغي أن نتناولها بحذر، فمعظمها مليىء بالاسرائيليات المحرفة الحاقدة، وأن لا نصدر أحكامنا

النهائية فيها إلا بعد أن نبحثها بحثاً دقيقاً، بأن نسلط الأضواء على العصر الذي يحتمل أنها حدثت فيه، فإن وجدنا مايثبت ذلك عملياً أخذنا به، وإلاَّ حولناه على ذوي الاختصاص من علماء الآثار والنقوش.

هذا وقد ظل (سموى إل) كاسم لقبيلة تيماء متداولاً حتى أواسط القرن الثالث الميلادي وهو تاريخ نقش نبطي عثر عليه في تيماء كضريح أمر بكتابته عدنان بن حتى من سموى إل رئيس تيماء على قبر زوجته معونه بنت عمرو بن عدنان من قبيلة (سموى إل) التي توفيت في شهر آب سنة ٢٥١ للميلاد.

وقد نشرت النقش الباحثة الألمانية روث ستيهل التي زارت المنطقة في أواخر الثمانينيات الهجرية ضمن كتابها بالألمانية (رحلة إلى شمال الجزيرة العربية)[١] .

(١) انظر نقش روت ستهيل رقم (٥٤)